محاضرة بعنوان : تموين مدينة الجزائر خلال العهد العثماني ملخص من مقال تاريخي للأستاذ خميسي عبد الحميد نشر في جويلية 2018 (عدد 35) بمجلة الحقوق و العلوم الإنسانية – جامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة : تموين المدن و الحواضر مثل هاجسا للسلطة السياسية في أوقات السلم و الحرب . و لعل تجربة الرومان في هذا المجال لا تضاهيها تجربة أخرى سوى التجربة العثمانية التي لم تترك ثغرة تذكر في هذا المجال و هو ما نال إعجاب الفرنسيين فيما بعد . فبقاء الأتراك ي بلادنا مدة تلاثمائة عام يعود و لو جزئيا للتدابير الدفاعية التي استحدثها او اقتبسها الاتراك العثمانيون عن سابقيهم . فيا ترى فيما تتمثل الآليات التي قام عليها النظام التمويني الخاص بمدينة الجزائر بين القرن 16 و 19 لكي تبقى فعلا محروسة كما كانت تسمى ؟

الجزائر عاصمة الإيالة : لم يقع اختيار الأتراك على مدينة الجزائر لتصبح عاصمة للبايلك لكونها تتوسط إقليم المغرب الأوسط كما يتوهم البعض بل الى عامل آخر وهو امتلاكها و إشرافها على اوسع و أخصب إقليم زراعي في الإيالة . و وضع يدهم على المدينة قام افخوة بربروس بتفكيك و إعادة توزيع القبائل العربية من بني هلال وبني سليم التي كانت تسيطر على متيجة و ريف المدينة الذي يعرف بالساحل.وكانت قبيلة الثعالبة الضحية الأولى لتلك السياسة رغم الولاء الذي ابداه زعيمها سالم التومي للأخوة بربروس.و بذلك أصبح الأتراك بمساعدة الحضر يسيطرون على المدينة و ريفها الذي أضحى خزانا يغذي الجزائر بكل ما تحتاج إليه من مواد تموينية :الحبوب – السمن اللحوم والدواجن و غيرها.

تكون ريف الجزائر من أراضي رطبة سماها الأهالي الفحص وهي كلمة اندلسية توحي بأن سكان هذه الأماكن كانوا اندلسيين قام الأتراك بتوطينهم بها بغية غعادة بعث النشاط الزراعي بها . و لنفس الغرض قامت سلطات الإيالة ببناء قرى سميت احواش كان عددها حوالى اربعة عشر في القرن 17 م لمواصلة توطين الأندلسيين الذين جرى طردهم أوائل القرن 17م. و هذه الاحواش كانت عبارة عن مستوطنات زراعية. وقد تحولت بفضل براعة الأندلسيين في الأعمال الفلاحية الى مساحات زراعية خصبة أدخلت إليها زراعات كثيرة لعل أهمها الأشجار المثمرة كالبرتقال و سائر الحوامض و الخضروات المعروفة و الدخيلة . و الحقيقة أن الأتراك اعتمدوا في سياسة توطين و إدماج الأندلسيين على شيوخ الزوايا الذين يعرفون بالمرابطين المؤسسين كمؤسس البليدة ووليها الصالح و حامي الأندلسيين سيدي أحمد الكبير.كما حصلت الجالية التركية و ابنائها الكراغلة حصة الأسد من العقارات الزراعية حول مدينة الجزائر. أما القبائل المحلية فلم تحصل سوى على حق الانتفاع من أراضي البايلك كما هو الحال بالنسبة لقبائل المخزن .و شكلت اراضي العزل جزءا من

اراضي الساحل و متيجة و كانت موزعة اساسا على موظفي البايلك و في مقدمتهم خوجة الخيل .

شبكة تموين المدينة : تتكون هذه الشبكة من موظفين مهمتهم الإشراف المباشر على الانتاج ثم النقل و أخيرا التوزيع .

أ- وكلاء السلطان :وظيفتهم تسيير مزارع البايلك او الأحواش لضمان وفرة الأغذية للقراصنة المجاهدين و جنود الحامية الانكشارية و موائد الحكومة و الوجاق .

ب- خوجة مخزن الزرع :و هو مقتصد البايلك يشرف على المخازن الحكومية كما يشرف على المخابز الحكومية التي توفرمادة الخبز للبايلك و الانكشارية . كما يراقب زراعة الأراضي المزروعة لفرض الضرائب على أصحابها .

ج- خوجة الرحبة : يشرف على تحصيل الضرائب المفروضة على بائعي الحبوب لفائدة البايلك.

د- خوجة العيون : يمثل ادارة المياه و يشرف على الأملاك الموقفة لانجاز و ترميم العيون و الخزانات و القنوات.

ه- خوجة الملح : بما ان البا يلك يحتكر هذا المجال فالخوجة يشرف على شراء الملح اعادة بيعه بالتجزئة .

ن- خوجة الفحم : كان يشرف على عمليات جمع الضرائب المفروضة على تجار الفحم و الحطب في باب عزون .

و- المحتسب : لعل الحسبة تعد أهم إنجاز للحضارة الاسلامية . ولذلك استخدمت كل الدول الإسلامية هذه المؤسسة التابعة رأسا لولي الأمر. كانت وظائف المحتسب هي تفتيش الأسواق و المخابزو يفرض الأثمان العادلة على البائعين و الزبائن كما يراقب موازين الخبز و يوقع العقوبات على المخالفين. كما يقوم بتحصيل الضرائب على الخضر و الفواكه و الحليب و اشياء اخرى.

ي- أمناء الطوائف المهنية : و هم امناء الحرف المتواجدة بمدينة الجزائر. ففيما يتعلق بالتموين نذكر من بينهم : أمين السمانين و يشرف على تجارة السمن و الزيت و العسل. أمين الخبازين و يشرف على الخبازين . أمين الجزارين و يشرف على المشتغلين بالجزارة. أمين الصيادين و يشرف على نشاطات الصيد البحري.و
يتعاون هؤلاء مع موظفي على تنظيم الحرف المتداولة و مراقبة الانتاج و تقديم العم للبايلك باستمرار في شكل هدايا يقدمونها لممثلي البايلك (ارجع الى دفتر التشريفات لمزيد من الاطلاع على موضوع الهدايا و الهبات في العهد العثماني)

خاتمة : رغم هذا النظام المحكم الذي أثبت نجاعته على مدار 300 سنة الا أنه كأي عمل انساني لا يخلو من نقائص و سلبيات نذكر بعضها مثل الاستبداد و الطغيان الإداري

الذي كان مسلطا على رقاب الناس و يحتسب عليهم لقمة العيش رغم قلتها . و هو ما ترك آثارا سلبية على الانتاج الاقتصادي و خاصة الزراعي منه . فمعظم الناس تركوا الاراضي القريبة من الحواضر و احتموا بالجبال و الصحاري كي لا تطالهم يد السلطة الغاشمة فتراجع النشاط و الانتاج الزراعي بشهادة جل الباحثين في هذا الموضوع .اما الكوارث الطبيعية فكان لها دور أساسي في تراجع و ضعف هذا النظام و نخص بالذكر دورات الجفاف التي شهدتها الجزائر في الفترة الحديثة تم الجراد و الأوبئة و الثورات السياسية التي شهدتها البلاد طوال هذة الفترة .